شمعة مضيئة في العراء

د. محمد ربيع

خرجت من غرفتي في الفندق الذي نزلنا فيه في مدينة أيوي في الصين، ذهبت إلى المطعم لتناول طعام الفطور، تجولت في أركان المطعم المكتظ بالضيوف أبحث عن بعض الزملاء للإنضمام إليهم، رأيت الصديق الدكتور على أومليل يجلس وبرفقته زوجته السيدة نزهة حول طاولة صغيرة لا تتسع لثالث. طرحت عليهم تحية الصباح وتبادلنا بعض الكلمات والمعلومات، ثم سرت في طريقي.. تركت عيني تبحث عن غيرهم دون اكتراث، لقد أيقنت أنني جئت مبكرا، وأن بقية الزملاء على ما بدا لي لم يغادروا غرف نومهم بعد. وما أن أدرت وجهي نحو شباك القاعة المطل على الشارع العام حتى رأيت الدكتور ين يانج، نائب رئيس معهد الصين للدراسات الدولية الذي استضافنا خلال رحلتنا في تلك البلاد العظيمة.. لم يكن من الصعب التعرف على الدكتور يانج بسرعة، وذلك لأن أعداد الصينيين في المطعم كان قليلا جدا، لا يتعدى 5% من زبائن الفندق. مدينة أيوي مركز تجاري هام في الصين، يتوافد عليها التجار من كل مكان في العالم بشكل يومي، أما السياح فلا يجدوا فيها ما يستدعي الزيارة أو الاهتمام.

كان الدكتور يانج يجلس وحده على طاولة صغيرة تشرف على الساحة الرئيسية.. اقتربت منه، تبادلنا تحية الصباح، وقبل أن أنضم إليه استأذنته كي أزور بوفيه الطعام.. عدت بعد دقائق أحمل طبقا صغيرا من الفواكه وفنجان شاي وكأس عصير.. وضعتها على الطاولة، وهممت بالذهاب ثانية لإحضار قطعة من الخبز وقليلا من العسل. لكن زميلي نهض من مكانه قائلا إنه مضطر لمغادرة القاعة لإجراء مكالمة تلفونية قبل وصول الباص المخصص لنقلنا إلى مصنع كبير للجوارب كنا على موعد لزيارته. ودعته على أن نلتقي بعد ساعة تقريبا حسب الموعد المحدد لمغادرة الفندق.. كانت المواعيد محددة سلفا، وبرنامج الجولة مُحكما، والترتيبات دقيقة للغاية، لا تترك مجالا لإضاعة وقت أو سوء تفاهم أو إعادة نظر. كان الصباح في ذلك اليوم هادئا، والجو حارا جدا ورطبا يوحي بالاختناق. وبينما كنت أسير في قاعة الطعام، كانت اللغة العربية تلاحقني، واللهجات العربية المختلفة تحاصرني من كل جانب.. تجار من مصر واليمن وسورية والأردن والمغرب ولبنان والعراق وغيرها يتبادلون الأحاديث والمعلومات عن أحوال السوق، عن الأسعار والجديد من البضائع.

عدت إلى طاولتي بعد دقيقة تقريبا لأجد شخصا ذا سحنة شرق أوسطية يجلس عليها.. خاطبته باللغة الإنجليزية وأخبرته بأنني وضعت طعامي على تلك الطاولة كي أعود لأجلس عليها. أجابني بكل تواضع وأريحية معتذرا، ثم نهض من مكانه وبدأ يلملم أطباق طعامه. سألته عندها عما إذا كان وحده، وحين أجابني بالإيجاب، دعوته لمشاركتي تلك الطاولة لأنني كنت وحدي أيضا، ولم أشعر بأن من حقي حجز مقعد إضافي دون سبب. كان الرجل في منتصف الخمسينات من العمر، تطغى على ملامحه علامات الهدوء والطيبة، ظننت أنه من تجار الجملة الإيرانيين أو الأتراك أو الأرمن، جاء للتسوق كغيره من آلاف الغرباء الذين يزورون تلك المدينة يوميا، يساومون ويشترون بضائع كثيرة بأسعار رخيصة، ويقومون بشحنها لبلادهم أو تصديرها لبلاد أخرى. وكما علمنا فيما بعد من نائب مدير منطقة إيوي الذي دعانا لوليمة غداء

كبيرة في الفندق، يتواجد ما بين مدينتي شنغهاي وأيوي حوالي ستة آلاف عربي، أغلبهم من أبناء اليمن السعيد. إذ تمتاز مدينة إيوي بإحتوائها على أكبر سوق حر في العالم، يضم خمسة عشر ألف معرض لمختلف أنواع الملابس والمجوهرات والبضائع، تحتاج زيارتها جميعا، على افتراض قضاء ثلاثين دقيقة في كل معرض، حوالي نصف سنة كاملة.

ما كدت أن أجلس على الطاولة حتى سألني الرجل الغريب عن بلدي.. أجبته دون تردد قائلا، أنا فلسطيني.. أبتسم وقال بهدوء "وأنا من إسرائيل". فاجأني الجواب لدرجة كادت أن تربكني وتُخرجني عن طبعي.. شعرت كأنني دخلت في نفق معتم لم أعد أعرف طريقي فيه. كان جلوسي في ذلك المكان، في ذلك البلد، في ذلك اليوم، في تلك اللحظة مع شخص من إسرائيل هو آخر ما كان يمكن أن أتخيله مهما سرحت بخيالي بعيدا عن الواقع. لكنني تمالكت نفسي ولم أسمح للارتباك بأن يسيطر على عقلي ويقودني لاتخاذ موقف أبدو من خلاله صغيرا في عين رجل يعتبر عدوا. سارعت إلى سؤاله قائلا، لماذا تقول "أنا من إسرائيل" ولم تقل "أنا إسرائيلي"؟ قال، إنني من تركيا.. تركي يعيش في إسرائيل.. نعم أنا يهودي وأحمل الجنسية الإسرائيلية اليوم لكنني أسافر بجواز سفري التركي، وأشعر بالانتماء لتركيا وثقافتها أكثر من إنتمائي لإسرائيل وثقافة يهود إسرائيل.

سألته لماذا هاجر من تركيا لإسرائيل إذن. وهنا أجابني باللغة العربية وليس بالانجليزية قائلا، أنا من حلب.. أمي ولدت في حلب، لكننا كنا نعيش في طرف المدينة الذي أصبح جزءا من تركيا فيما بعد. لقد عشنا في تركيا حتى قيام الجيش التركي بالإستيلاء على الحكم في عام 1980، وكنت حينئذ قد انتهيت من دراسة السنة الأولى في الجامعة.. جاءنا بعض الصهاينة من إسرائيل وأقنعونا بأن وصول الجيش إلى السلطة يهدد حياتنا ومستقبلنا في تركيا، مما اضطرنا إلى الرحيل، لكنني أحن لتركيا وأتردد عليها بإستمرار. والآن، بعد مضي أكثر من ثلاثين سنة على الهجرة، لا أشعر بالاندماج مع اليهود المهيمنين على الثقافة والدولة في إسرائيل. إن كل أصدقائي من العرب.. أغلبهم من مدينة جنين، يعملون معي، ينامون في مكتبي في تل أبيب.. يذهبون يوم الجمعة إلى بيوتهم وعائلاتهم، ثم يعودون يوم الأحد.. إننا نتعامل في القرطاسية ومستلزمات المكتبات والمدارس من دفاتر وأقلام وغير ذلك، وإن تجارتي أساسا مع عرب الضفة الغربية، ليس لي زبائن كثيرون في إسرائيل.

كان يتكلم ببساطة دون أن تفارق البسمة عينيه، أو تبدوا على وجهه علامة توحي بالاحراج أو عدم الارتياح أو حتى التصنع. كان من الواضح أنه قد تطبع بطباع عرب فلسطين، وأنه يتكلم معي كأنه يتكلم مع أحد أصدقائه من جنين. سرقني الحديث من زمني، حملني إلى يافا ويازور مسقط رأسي، وفرض علي أن أنظر إلى الأمام وأتخيل كيف يمكن لنا أن نُصفي ذلك الكيان العنصري الذي لم ينجح حتى في تكوين مجتمع ينتمي لثقافة واحدة ويصهر سكانه في بوتقة ثقافية متجانسة. وخوفا من الوقوع في خطأ ما، ولأن وقتي كان قصيرا، وجدت نفسي أسارع في تناول طعامي، محاولا أن أتحاشى احتمالات تطور الحديث إلى مواضيع لا أريد الخوض فيها في ظل تلك الظروف الغامضة، والخروج من المطعم قبل وصول زميل يضطرني لشرح موقف غريب يصعب شرحه وتفسير ملابساته. لذا لم أسأل ذلك الرجل عن اسمه، ولم يسألني عن إسمي، ولم نتبادل بطاقات التعارف. وقبل أن أتركه وأغادر قاعة الطعام، سألني عن طبيعة عملي، أخبرته بأنني

أستاذ جامعي وكاتب، نذر حياته في سبيل خدمة طلابه، وتقدم المعرفة، والترويج لفكرة العدالة والمساواة، وتعميق وعي الإنسان بإنسانيته. قال الرجل، إنني لست مثقفا أعمل في مجال الكتابة ونشر الوعي، لكنني أعتقد أن الناس نوعين: يولد البعض منهم طيبا، يحب عمل الخير ويحترم أخيه الإنسان، ويولد البعض الآخر شريرا، يغوى الشر ويعتدي على حقوق أخيه الإنسان، غالبا بلا سبب. وبينما يمكن إغراء الثاني، باستخدام عصا الترهيب وجزرة الترغيب، على إصلاح حاله والتنازل عن عدوانيته، لا يمكن إقناع الأول بالتنازل عن إنسانيته والتحول إلى إنسان عدواني دون إقناعه أولا بإعتناق إيديولوجية عنصرية تقوم على التفرقة ضد الغير، لذلك رفضت الصهيونية وقبلت أن أكون يهوديا يعيش في إسرائيل، مع الحفاظ على ثقافتي في البيت وخارج البيت. وحين رآني أتأهب للذهاب، تمنى لي رحلة طيبة في الصين دون أن يسألني عن أسباب زيارتي.. تركته وسرت في طريقي دون أن التفت إلى الوراء.

وما أن خرجت من المطعم حتى تبخرت الحيرة من رأسي، وغمرتني مشاعر غريبة أعادتني إلى ما قبل عام 1948.. إلى جيراننا من يهود اليمن، إلى بيت سعدية صديقة جدتي.. وهنا تذكرت قصة العائلات اليهودية الثلاثة التي لجأت إلى بيتنا في يازور بعد قيام طائرة إيطالية بقصف مدينة تل أبيب خلال سنوات الحرب العالمية الثانية. لقد كان من بين تلك العائلات عائلة باخور التي وقع عمي في حب إحدى بناتها، لكن قصة الحب لم تستطع أن تتجاوز حواجز التقاليد العائلية العاتية والخلافات الدينية العميقة. بالرغم من ذلك، كانت صورة أليسا هي الشيء الوحيد الذي حمله عمي معه على مدى رحلة شتات دامت أكثر من 60 سنة متواصلة دون أن تنتهي، ودون أن تقترب من خط النهاية.. صورة ترقد اليوم على مكتبي، لم أقرر بعد ماذا أفعل بها.

وفي طريقي إلى غرفتي تساءلت عما إذا كان بإمكاني أن أتعايش مع ذلك الرجل، وأن أقبل به جارا لي ولأولادي وأحفادي. ومع أنني لم أسمع من ضميرى إجابة شافية، إلا أنني شعرت بأن الرجل تجاوز ذلك السؤال منذ سنوات، وأنه يتعايش بسلام وثقة مع أمثالي من عرب فلسطين.. شعرت عندها بأنني أرى شمعة ضعيفة تترنح في العراء، ترسم ظلالها معالم طريق لا يشير إلى أي اتجاه كان. وهنا أدركت أن وصولي إلى ما وصل إليه ذلك الرجل من قناعة واطمئنان لا بد وأن يمر أولا بمرحلة كفاح مشترك تنتهي بتصفية الكيان الصهيوني والقيادات الإيديولوجية الموتورة التي تهيمن عليه وتنتقص إنسانية الإنسان كل يوم، وتدوس على كرامة الإنسان كل لحظة، وتصادر حقوق الإنسان بلا سبب، ولا تتوانى عن التضحية بحياة عشرات الآلاف لإشباع حب السيطرة لديها والإنتقام من كل إنسان يقف في طريقها.

إن ذلك الرجل يدرك تماما أن أصدقائه من عرب فلسطين يقضون أيام الأسبوع في مكتبه خلافا لقوانين التفرقة العنصرية التي سنتها الدولة التي ينتمي إليها، كما وأن فشله في الاندماج في مجتمع يهودي يعتنق الإيديولوجية الصهيونية يجعل من المستحيل علينا غير اليهود وغير المؤمنين بالصهيونية أن نندمج في ذلك المجتمع ونتعايش بسلام مع قوانينه الظالمة. وهذا يحتم عليه وعلى أصدقائه من عرب فلسطين بل وعلى أمثالي من الناس وكل المحبين للسلام القائم على العدل في العالم أن يعملوا سويا على تطهير الأرض الفلسطينية من الصهيونية، ومما تحمله في طياتها من تفرقة عنصرية، وما تمارسه على الأرض من ظلم وقهر. ودون ذلك لن يكون بالإمكان أن نعيش معا بسلام، فالسلام يحتاج لأرض محررة من قوانين التفرقة

العنصرية ومن كل إيديولوجية تتنافى مع مبادئ الحرية والعدالة وتشكل خطرا على مستقبل أحفادنا من بعدنا.. الإيديولوجية هي العدو الأول والعدو الأخير، هي البلاء، وليس لها دواء سوى إزالتها من الوجود.. لذا كان علينا أن نعمل على تعريتها وكشف جرائمها وسحب الشرعية منها أينما كانت وبأي شكل أتت، ودون ذلك يستحيل تحقيق السلام في الأوطان، وإقامة العدل والوئام بين بني الإنسان.

د. محمد ربيع www.yazour.com

واشنطن: أكتوبر 2010